الفصل الرابع

خـــوف الله

في زمـن الغفلـة والغرور، في زمن العمه والعمى عن الآخرة، في زمن اختلطت فيه الأوراق، وتعامـل النـاس فيه بالنفاق، وانمحت فيه معالم الأخـلاق، وصار التفلت من أحكام الشرع سـمة غالبة، واستأسـدت الفتن وتنوعت وأحاطت بالمسلم من كل اتجاه، وغـرق كثـير من الناس في شـهوات محرمـة، وغفلة مسـيطرة، ممـا أدى إلى تفريط ظاهر، وضعف واضح في التمسـك بالدين وشـعائره، كل ذلك يجعلنا في حاجة ماسة للحديث عن الخوف والتذكير به، فالخوف من الله من أنفع أعمال القلوب؛ لأنه يردع عن المعاصي ويزجر عن السيئات، ويدفع إلى أداء الفرائض وفعل الطاعات، ويطهر القلب من الكبر والعجب والغرور، ويكسـوه بالتواضع والخشـوع والذل لله جَلَّجَلَالُهُ، فتعالوا نعيش هذه اللحظـات مع تلـك العبـادة العظيمة الكريمـة لعل القلـوب تمتلئ بمعانيهـا وحقائقها فتحققها وترغب فيها وتثبت عليها.

حقيقة الخوف

الخوف لغة الذعر والفزع[١]، واصطلاحًا:

فزع القلب من مكروه يناله أو من محبوب يفوته[٢].

وقيل: تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال[٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف[٤]، تذكر المخوف يعني تذكر ما يخافه، تذكر الله رب العالمين فتخاف منه، وتذكر الجنة وتخاف

(١) «المعجم الوجيز» ص [٢١٤].
(٢) «دليل الفالحين» لابن علان.
(٣) «الإحياء للغزالي» (٤/ ١٦٣) ط. الدار المصرية اللبنانية.
(٤) «تهذيب المدارج» ص [٢٦٦].

أن تحرم منها، وتذكر النار وتخشى أن تحرق فيها، وتذكر مكر الله فلا تأمن بل تخاف أن يختم لك بخاتمة السوء، وتخاف ألا يختم لك بعمل أهل الصلاح والتقوى.

الخوف المحمود

ليس الخائف من يكثر البكاء والنحيب ثم يكون جريئًا على معاصي الله متثاقلًا عن الطاعات، بل الخوف الحقيقي هو ما يدفع العبد لتحقيق العبودية لله وطاعة أمره وقد قيل: ليس الخائف من يبكي فيمسح عينيه، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عَزَّوَجَلَّ فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط، وقال أبو عثمان: صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطنًا وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله(٢).

حكم الخوف من الله

خوف الله من أعظم عبوديات القلب وهو فرض واجب على كل أحد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

أمر الله بالخوف وأوجبه وجعله شرطًا للإيمان، ولا يتصور من مؤمن أن يخلو قلبه من خوف الله، إنه قد يضعف خوفه لكن يكون ضعفه بحسب إيمانه ومعرفته ويكون بسبب جهله بصفات الله جَلَّجَلَالُهُ، وغفلة القلب عن الآخرة.

---

(١) «الإحياء» (٤/ ١٦٤).

(٢) «تهذيب المدارج» [٢٧٠-٢٧١].

وقال تعالى: ﴿وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]. والرهبة من الله خوف مع هرب وفرار والفرار من الله لا يكون إلا إليه، وقال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]. والخشية خوف مقرون بمعرفة وعلم(١).

والخوف الواجب على العبد لربه عَزَّوَجَلَّ ثلاثة أنواع: خوف العبد من قيامه بين يدي الله يوم القيامة، وخوفه من اطلاع الله عليه وقدرته عليه ومراقبته له، والثالث خوف الوعيد الذي أوعد الله به عباده في كتابه كما قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤]. وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]. يقول العلامة القرآني الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذه الآية الكريمة فيها وجهان معروفان عند العلماء كلاهما يشهد له قرآن، أحدهما- أن المراد بقوله مقام ربه أي: قيامه بين يدي ربه، وهذا القول يشهد له قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]. فإن قوله ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ قرينة دالة على أنه خاف عاقبة الذنب حين يقوم بين يدي ربه فنهى نفسه عن هواها، والوجه الثاني- أن فاعل المصدر الميمي الذي هو المقام هو الله تعالى أي خاف هذا العبد قيام الله عليه ومراقبته لأعماله وإحصاءها عليه ويدل لهذا الوجه الآيات الدالة على قيام الله على جميع خلقه وإحصائه عليهم أعمالهم(٢).

فضيلة الخوف وثمرته

الخوف من المقامات العلية وهو من لوازم الإيمان وكلما كان العبد بالله أعرف كان له أتقى وأخوف، وكلما كان العبد من ربه أقرب كان له أشد خشية، وإذا عمر القلب بخوف الله سعد العبد في دنياه وأخراه، وبدون الخوف يخرب القلب ويتيه في مهاوي الضلال ودركات الانحراف والخذلان، قال ابن القيم: قال أبو سليمان: ما فارق القلب

(١) والوجل: رجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سطوته وعقوبته أو رؤيته، والهيبة خوف مقارن للتعظيم والإجلال «تهذيب المدارج» ص [٢٧٠].

(٢) «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» للشنقيطي (٧/ ٧٥٦) باختصار ط. ابن تيمية.

قومًا إلا خرب، وقال إبراهيم بن سفيان: إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها، وطرد الدنيا عنها، وقال ذو النون: الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق.

والخوف ليس مقصودًا لذاته، بل هو مقصود لغيره قصد الوسائل، ولهذا يزول بزوال المخوف، فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون[١].

وقال الغزالي: قال الفضيل: من خاف الله دله الخوف على كل خير، وقال الشبلي: ما خفت الله يومًا إلا رأيت له بابًا من الحكمة والعبرة ما رأيته قط[٢].

وهاك بيان شيء من فضائل الخوف وثمرته:

أولًا - خوف الله طريق الجنة:

أهل الخشية من الله، المستجيبون لله، الخاشعون القانتون يؤهلهم خوفهم لدخول جنة الله ويكون سببًا لتنعمهم في جنات عدن التي فيها النعيم المقيم قال ربنا العليم الحكيم في كتابه الكريم: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]. وقال جل ذكره: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]. وتأمل هذه الآيات الكريمة التي تملأ القلب بالروعة والإجلال، وتبعث فيه المسارعة إلى طاعة الرب ذي الجلال وذلك حينما يفوز الخائفون الوجلون الذين أقلقهم خوفهم من ربهم فقاموا في الليل بين يديه، وأنفقوا مما رزقهم ربهم تقربًا إليه يكون ثوابهم ما تقر به عيونهم، يقول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٥-١٧].

(١) «مدارج السالكين».

(٢) «الإحياء» (٤/ ١٧٠) ط. الدار المصرية اللبنانية.

ثانيًا- خوف الله نجاة من النار وأمان في الآخرة:

من رحمة الله وحكمته أن يكافئ من خافه في الدنيا بنجاته من عذاب الآخرة، فمن خاف من عذاب الله، وأشفق منه في الدنيا، وعمل للفرار منه؛ أنجاه الله كما قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٥-٢٨]. وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم**»(١).

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «**وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمنين، إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة**»(٢).

من خاف ربه في الدنيا أنجاه الله في الآخرة من عذابه يقول يحيى بن معاذ: مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر لدخل الجنة.

وقيل له: من آمن الناس غدًا؟ فقال: أشدهم خوفًا اليوم(٣).

ثالثًا- سبيل لمغفرة الذنوب:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]. والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه، وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أسرف رجل على نفسه فلما حضره الموت أوصى بنيه فقال: إذا أنا مت فاحرقوني، ثم اسحقوني، ثم اذروني في الريح في البحر-وفي رواية: ثم اذروا نصفه في البر**

---

(١) رواه الترمذي برقم [٢٣١١]، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم [٧٧٧٨].

(٢) رواه البيهقي في «الشعب» (١/ ٤٨٣)، وابن حبان (٢/ ٤٠٦)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم [٤٣٣٢].

(٣) «الإحياء» (٤/ ١٧٠).

ونصفه في البحر- فوالله لئن قدر عليَّ ربي ليعذبني عذابًا ما عذب به أحدًا قال: ففعلوا به ذلك فقال الله للأرض: أدي ما أخذت -وفي رواية: فأمر الله البر فجمع ما فيه وأمر البحر فجمع ما فيه- فإذاهو قائم فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: خشيتك يارب أو قال مخافتك، فغفر له بذلك»[(١)]، فهذا العبد غفر له ذنبه، بل وغفر له جهله وكلمته التي قالها التي تدل على شك في قدرة الله فغفر له ذلك كله بخشيته لله وخوفه منه، وعذر بجهله ولم يؤاخذ به.

رابعًا- الخائف من ربه في ظل العرش يوم القيامة:

في يوم القيامة يعظم الكرب، ويشتد على الناس الحر، ومن كرامة الله لمن خافه في الدنيا أن يكون في ظل عرش الله يوم القيامة كما في حديث السبعة المشهور قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله...**» ذكر منهم: «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله..... ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»[(٢)]، الأول: حجزه خوفه من الله من ارتكاب ما حرمه الله فكان جزاؤه أن يكون في ظل عرش ربه يوم القيامة، وأما الثاني: فإنه ذكر الله خاليًا فبكى من خشية الله جَلَّ جَلَالُهُ، وهل أبكاه إلا خوفه من الله إما من ماضٍ أساء فيه، أو مستقبل لا يعلم ما الله فاعل به: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المعارج: ٢٧][(٣)].

خامسًا- خوف الله يدفع إلى طاعة الله وعمارة بيوته:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]. وصفهم الله عَزَّوَجَلَّ بالإيمان النافع وبالقيام بالأعمال الصالحة التي أمها الصلاة والزكاة،

---

(١) رواه البخاري برقم [٣٤٨١]، ومسلم برقم [٢٧٥٦].

(٢) رواه البخاري برقم [١٤٢٣]، ومسلم برقم [١٠٣١].

(٣) «في ظل عرش الرحمن» ص [٦٠-٦١] نقلًا عن «ترطيب الأفواه» (١/ ٤٧) ط. مكتبة معاذ بن جبل.

وبخشية الله التي هي أصل كل خير، فهؤلاء عمار المساجد على الحقيقة وأهلها الذين هم أهلها ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ وعسى من الله واجبة وأما من لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا عنده خشية لله فهذا ليس من عمار مساجد الله ولا من أهلها الذين هم أهلها وإن زعم ذلك وادعاه[1]، وعمارة بيوت الله تكون بإقامة الصلاة فيها فرضًا ونفلًا، وإعمارها بالذكر ودروس العلم التي يتعلم فيها الحلال والحرام، وتزداد فيها بصيرة المرء بدينه وتزكو فيها نفسه، وكذلك عقد حلقات لتحفيظ القرآن وتلاوته، وحفظ السنة النبوية وقراءتها، وأن يكون المسجد منارة هداية ومنبع نور وتقوى في كل وقت وآن، ومما يدلك كذلك على أن الخوف يبعث على العمل الصالح قول الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧]. من شدة هوله وإزعاجه للقلوب والأبدان، فلذلك خافوا ذلك اليوم فسهل عليهم العمل وترك ما يشغل عنه[2].

سادسًا- خوف الله صفة الصفوة من عباد الله:

أخوف الناس لله وأتقاهم له هم أعلم الناس به سبحانه، وكلما ازداد العبد معرفة بربه وأسمائه وصفاته ازداد خوفه منه، وكلما عظم جهله بالله ازدادت جرأته على معصية الله جَلَّ جَلَالُهُ. لقد قال الله تعالى عن أنبيائه الذين هم أقرب عباده إليه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وامتدح الله عباده المؤمنين المتقين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: ٢٧-٢٨]. وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خطبنا

---

(١) «تفسير السعدي» [٣٦٧] ط. دار ابن الجوزي.

(٢) «تفسير السعدي» ص [٦٦٣].

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطبة ما سمعت مثلها قط فقال: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبيتكم كثيرًا**» فغطى أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجوههم ولهم خنين[(١)]، فمن كان من الصالحين في الاسم لابد أن يكون منهم في السمت والوصف، وخوف الصالحين من ربهم لكمال علمهم ويقظة قلوبهم وقوة بصيرتهم ونعوذ بالله من الغفلة وقسوة القلب.

ويحذركم الله نفسه

قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠]. وقال جل جلاله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. وقال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢].

وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۝١٠٤ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ۝١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٢-١٠٨].

---

(١) رواه البخاري برقم [٤٦٢١]، ومسلم [٢٣٥٩].

وقال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عَبَسَ: ٣٤-٣٧].

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هُودٍ: ٨٢-٨٣].

وقال الله سبحانه: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾.

[إِبْرَاهِيمَ: ٤٢-٤٥]

وقال الله جل ذكره: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفَجْرِ: ٦-١٤].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ [النَّجْمِ: ٥٠-٦٢]. والآيات في ذلك كثيرة ولعل فيما ذكر كفاية فتدبر تلك الآيات وأعد تلاوتها مرات ومرات يخشع قلبك ويمتلئ خوفًا من ذي الجلال جَلَّجَلَالُهُ.

رسول الله يعلمنا خوف الله

وهذا نبينا وقدوتنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من رحمته بأمته وشفقته عليهم وحرصه عليهم ورأفته بهم حذرهم عذاب الله وأمرهم بالخوف من الله، وملأ قلوب الصحابة تعظيمًا ومهابة وخشية لله جَلَّ جَلَالُهُ ومن الأحاديث الكريمة في هذا المعنى ما يلي:

عن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة**»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعًا، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم**»(٢).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ سمع وجبة(٣) فقال: «**هل تدرون ما هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم قال: «**هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفًا، فهو يهوي في النار الآن انتهى إلى قعرها، فسمعتم وجبتها**»(٤).

وروى الترمذي وحسنه من حديث أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تزول قدما عبدٍ حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه**»(٥).

---

(١) رواه البخاري برقم [٦٥٣٩]، ومسلم برقم [١٠١٦].

(٢) رواه البخاري برقم [٦٥٣٢]، ومسلم برقم [٢٨٦٣].

(٣) الوجبة: صوت سقوط، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: سقطت والله تعالى أعلم.

(٤) رواه مسلم برقم [٢٨٤٤].

(٥) رواه الترمذي برقم [٢٤١٧]، والدارمي برقم [٥٣٧]، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» [٧٣٠٠].

وفي الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا» قالت: قلت: يا رسول الله، الرجال والنساء جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة، الأمر أشد من أن يهمهم ذلك»[(١)].

أحوال الخائفين من رب العالمين

أيها الإخوة، إننا نعيش في أيام قست فيها القلوب، وجفت فيها العيون، ونسي كثير من الناس آخرتهم ووقوفهم بين يدى ربهم، ومحاسبته لهم على كل ما عملوه في حياتهم الدنيا، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠]. إن الغفلة الشديدة صارت هي السمة الغالبة، والجرأة على معاصي الله صارت هي الصفة العامة لكثير من الناس، ولست أنا وأنت بمنأى عن ذلك فكم فينا من غفلة وجرأة! ولذلك أردت أن نقف هذه الوقفة مع الأئمة المهتدين والصالحين العالمين وهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بدينه، وكلما كان المرء بالله أعلم كان له أتقى وأخشى فتعالوا نعرض على النفوس أحوال الخائفين الصادقين؛ لعلها تنتبه من غفلتها وتثوب إلى رشدها وتعود إلى ربها، ففي الحديث عن الصالحين دعوة إلى الاهتداء بهم، والاقتداء بهديهم والموفق من وفقه الله.

إمام المتقين وقدوة الخائفين

هذا أعلم خلق الله بالله، وأخشاهم له ذلكم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصحيحين أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له»[(٢)]، تأمل كيف كان يفزع ويقلق حينما يرى غيمًا أو ريحًا وبماذا يجيب حين يسأل عن ذلك كما في الصحيحين من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: ما رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستجمعًا ضاحكًا حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسَّم قالت: وكان إذا رأى غيمًا أو ريحًا عرف ذلك

(١) رواه البخاري برقم [٦٥٢٧]، ومسلم برقم [٢٨٥٩].
(٢) رواه البخاري برقم [٥٠٦٣]، ومسلم برقم [١١٠٨].

في وجهه فقالت: يا رسول الله، أرى الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته، عرفت في وجهك الكراهية؟ قالت فقال: «**يا عائشة، وما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا**».

وفي رواية قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا كان يوم الريح والغيم عرف ذلك في وجهه وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُرَّ به وذهب عنه ذلك قالت عائشة فسألته فقال: «**إني خشيت أن يكون عذابًا سلط على أمتي**»(١).

ولما مات عثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دخل عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت أم العلاء: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وما يدريك أن الله أكرمه؟**» فقلت: بأبي أنت يا رسول الله فمن يكرمه الله؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أما هو فوالله لقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير -ووالله ما أدري وأنا رسول الله- ماذا يفعل بي؟**» فقلت: والله لا أزكي بعده أحدًا أبدًا(٢).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك موافقة لقوله تعالى في سورة الأحقاف ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩]. وكان ذلك قبل نزول قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. لأن الأحقاف مكية وسورة الفتح مدنية بلا خلاف فيهما وقد ثبت أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أنا أول من يدخل الجنة**» وغير ذلك من الأخبار الصريحة في معناه(٣).

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقرأ عليَّ القرآن**» قلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: «**إني أحب أن أسمعه**

---

(١) رواه البخاري برقم [٤٨٢٨]، ومسلم برقم [٨٩٩].

(٢) رواه البخاري برقم [٧٠٠٣].

(٣) «فتح الباري» (٣/ ١٣٩) ط. الريان.

من غيري» فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]، قال: «**حسبك الآن**» فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان[(١)].

وعن عبد الله بن الشخير قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء[(٢)].

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: فقدتُ رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد[(٣)]، وهما منصوبتان وهو يقول: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[(٤)].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: خسفت الشمس في زمن النبي ﷺ فقام فزعًا يخشى أن تكون الساعة، حتى أتى المسجد، فقام يصلي بأطول قيام وركوع وسجود ما رأيته يفعله في صلاة قط، ثم قال: إن هذه الآيات التي يرسل الله لا تكون لموت أحدٍ ولا لحياته، ولكن الله يرسلها يخوف بها عباده، فإذا رأيتم منها شيئًا؛ فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره[(٥)].

ليت هذه الأحاديث التي ذكرناها عن سيد الخلق رسول الله ﷺ يكون لنا فيها عبرة وأن يكون فيها يقظة لقلوبنا، وانتباه من هذه الغفلة والبلادة التي تسيطر على

---

(١) رواه البخاري برقم [٤٥٨٢]، ومسلم برقم [٨٠٠].

(٢) رواه النسائي [١٢١٤]، وابن ماجه [٢٨]، وأحمد [١٦٣١٧]، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» [٥٤٤].

(٣) أي: في الموضع الذي كان يصلي فيه في حجرته.

(٤) رواه مسلم برقم [٤٨٦].

(٥) رواه البخاري برقم [١٠٥٩]، ومسلم برقم [٩١٢].

القلوب والعقول، إن غفلة قلوبنا ليست إلا ثمرة لجهلنا بربنا، وقلة الطاعات وعدم إتقانها وضعف الإخلاص فيها، فليتك تعقل معنى وقوفك غدًا بين يدي الله ليحاسبك عن كل نظرة، وعن كل لفظة، وعن كل ما اقترفت يداك في دنياك! إذا كان ما تقدم ذكره حال رسول الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ فكيف ينبغي أن يكون حالنا؟! هذا خوف نبينا أول من يحرك حلق الجنة، وصاحب الشفاعة العظمى، والحوض المورود واللواء المعقود، هذا خوف خليل الله ومصطفاه، فعجبًا لحال المذنب العاصي كيف يغفل والحساب غدًا بين يديه؟! عجبًا لصاحب الذنوب الثقيلة كيف يأمن والله سوف يحاسبه عن كل ما قدمته يداه في هذه الحياة، والحساب عند الله بالذرة فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره.

رسل الله وملائكته والعلماء

هؤلاء الأنبياء هم صفوة الله من خلقه وأقرب عباد الله إليه ومع ذلك فهم أشد الناس خوفًا من ربهم وأعظم الخلق خشية لخالقهم جَلَّ جَلَالُهُ تأمل ماذا يقول ربنا في وصفهم وكيف حالهم عند سماعهم كلام ربهم جَلَّ وَعَلَا قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]. قال الشنقيطي بعد أن ذكر آيات مشابهة لها في المعنى: فيها الدلالة على أنهم إذا سمعوا آيات ربهم تتلى تأثروا تأثرًا عظيمًا يحصل منه لبعضهم البكاء والسجود ولبعضهم قشعريرة الجلد ولين القلوب الكريمة ﴿وَبُكِيًّا﴾ جمع باك وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قرأ هذه الآية من سورة مريم فسجد وقال: هذا السجود؛ فأين البكى؟ يريد البكاء[1]، وامتدح الله عَزَّوَجَلَّ طائفة من أنبيائه فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿إِنَّهُمْ﴾

(١) «أضواء البيان» للشنقيطي (٤/ ٣٣٠-٣٣١) ط. ابن تيمية بالقاهرة.

يعني الأنبياء المسمَّين في هذه السورة ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ أي: يفزعون إلينا فيدعوننا في حال الرخاء وحال الشدة وقيل: المعنى يدعون وقت تعبدهم وهم بحال رغبة ورجاء ورهبة وخوف؛ لأن الرغبة والرهبة متلازمان(١).

وأما ملائكة الله تعالى فقد قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]. وقال الله جَلَّجَلَالُهُ في هؤلاء الملائكة الكرام الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨]، ﴿وَهُم﴾ يعني الملائكة ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾ يعني: من خوفه ﴿مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون لا يأمنون مكره(٢)، وقد قال الله جَلَّجَلَالُهُ كذلك: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

وأما أهل العلم فهم أخشى الناس لله، وبقدر علمهم تكون خشيتهم ويعظم خوفهم قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليس العلم من كثرة الحديث، ولكن العلم من الخشية.

وقال مسروق بن الأجدع رَحِمَهُ اللَّهُ: كفى بالمرء علمًا أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلًا أن يعجب بعمله(٣).

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٧٩) باختصار ط. التوفيقية.
(٢) المصدر السابق (١١/ ٢٣٥).
(٣) «الدر المنثور» للسيوطي (١٢/ ٢٨٠) ط. دار هجر.

أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وهم أئمة العلماء، وسادة الأتقياء وخير الخلق كافة بعد الأنبياء، وهم من بعدهم أرق الخلق قلوبًا، وأزكاهم نفوسًا وأشدهم لله خشية عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خطبنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطبة ما سمعت مثلها قط فقال: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا فغطى أصحاب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجوههم ولهم خنين**»[(١)]، والخنين هو البكاء بصوت مكتوم، وذلك لانصداع القلوب ووجلها، ورقتها وخشيتها لله جَلَّ جَلَالُهُ، تالله ما أروعه من مشهد، وما أجله من موقف حين يكون خطيبهم هو إمام الخطباء وسيد الأنبياء ويكون السامعون له صفوة الله من خلقه وتأتي الموعظة النبوية لتظهر الخشية والوجل، والخوف والإشفاق من الملك العلي جَلَّ جَلَالُهُ.

وهذا بعض التابعين يخبر بما رآه ممن عاشرهم من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيظهر سمتهم ووصفهم في خوفهم من ربهم وعدم الاغترار بالأعمال.

يقول ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلهم يخاف النفاق على نفسه، وما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل[(٢)]، إنه صدق الإيمان، والعلم والبصيرة التي تغرس في القلب خشية الله ومراقبته وعدم الأمن من مكره، وهل ثمة أحد أولى بذلك من أولئك الأخيار الأطهار الأبرار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم؟!

وهذا صديق الأمة الأكبر، الأواه المخبت الخاشع، إذا صلى بين يدي الله فاضت عينه بالدموع والبكاء وذلك لرقة قلبه وعظيم خشيته لربه، كما في الصحيحين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما اشتد برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعه قيل له في الصلاة فقال: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**» فقالت عائشة: إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن غلبه

---

(١) رواه البخاري برقم [٤٦٢١]، ومسلم برقم [٢٣٥٩]، وقد سبق قريبًا.

(٢) رواه البخاري في كتاب «الإيمان» معلقًا بصيغة الجزم باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

البكاء فقال: «مروه فليصل»، وفي رواية قالت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء[١]، وفي مشهد آخر يتكرر فيخلع القلوب ويجتذب إليه النفوس، وتندهش القلوب المشركة الجاحدة لروعة ما ترى وعجيب ما تشاهد حينما يقوم الصديق فيصلي بفناء داره ويبدو في هيئة عبادية مهيبة، ويعظم فيها الخشوع والبكاء بين يدي الملك العلي جَلَّ جَلَالُهُ فيتقذف إليه أبناء المشركين ونساؤهم ينظرون إليه ويعجبون من حسن صلاته حتى خشي سدنة الكفر أن يصدع ذلك المشهد العناد في تلك القلوب وتسلم لله جَلَّ جَلَالُهُ فراحوا يحولون بين الناس وبين رؤية هذا المشهد العبادي المؤثر، كما في حديث الهجرة الطويل تقول أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدًا بفناء داره، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيتقذف إليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلًا بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين[٢]، ثم ذكرت إرسالهم لابن الدغنة في أن يمنع أبا بكر ورد أبو بكر عليه جواره.

وهذا فاروق الأمة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: لو نادى مناد من السماء: أيها الناس إنكم داخلون الجنة كلكم إلا رجلًا واحدًا لخفت أن أكون أنا هو[٣].

وقال له ابن عباس: مصَّر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح وفعل وفعل فقال: وددت أن أنجو لا أجر ولا وزر[٤].

---

(١) رواه البخاري برقم [٧١٣]، ومسلم برقم [٤١٨].

(٢) رواه البخاري برقم [٣٩٠٥].

(٣) «التخويف من النار» ص [٣٣] ط. دار الإيمان.

(٤) «الداء والدواء» ص [٦٠] ط. دار ابن رجب.

ولما طعن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لو أن لي طلاع الأرض ذهبًا؛ لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه[١].

وقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كان رأس عمر على فخذى في مرضه الذي مات فيه فقال: ضع رأسي قال: فوضعته على الأرض فقال: ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي[٢].

وهذا أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبل لحيته وقال: لو أنني بين الجنة والنار ولا أدري إلى أيتهما يؤمر بي؛ لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير[٣].

وهذا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبكاؤه وخوفه وكان يشتد خوفه من اثنتين طول الأمل واتباع الهوى ويقول: فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة، والآخرة مقبلة ولكل واحدة منهما بنون؛ فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل[٤].

وعن ابن أبي مليكة قال: جلسنا إلى عبد الله بن عمرو في الحجر فقال: ابكوا فإن لم تجدوا بكاء فتباكوا، لو تعلمون العلم لصلى أحدكم حتى ينكسر ظهره، ولبكى حتى ينقطع صوته[٥].

---

(١) رواه البخاري برقم [٣٦٩٢].

(٢) «شرح السنة» للبغوي (١٤/ ٣٧٣) ط. المكتب الإسلامي.

(٣) «الزهد» لأحمد ص [١٦٠]، و «الداء والدواء» لابن القيم ص [٦٠]، و «التخويف من النار» ص [٣٣].

(٤) «صفة الصفوة» (١/ ١٢٦) ط. دار المنار.

(٥) رواه الحاكم موقوفًا وصححه الألباني كما في «صحيح الترغيب» رقم [٣٣٢٨].

وبكى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مرضه فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أما إني لا أبكي على دنياكم هذه، ولكن أبكي لبعد سفري، وقلة زادي، وإني أمسيت في صعود إلى جنة أو نار، لا أدري إلى أيتهما يؤخذ بي.

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه جالس في أصل جبل يخشى أن ينقلب عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذبابٍ مرَّ على أنفه فقال به هكذا[١].

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول إذا قعد يذكر الناس: إنكم في ممر الليل والنهار في آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، ومن زرع خيرًا يوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شرًا يوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارع مثل ما زرع، لا يسبق بطيء بحظه، ولا يدرك حريص ما لم يقدر له، فمن أعطي خيرًا فالله أعطاه، ومن وقي شرًا فالله وقاه، المتقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة[٢].

قال رجل لابن عمر: يا خير الناس أو يا ابن خير الناس فقال: ما أنا بخير الناس ولا ابن خير الناس، ولكني عبد من عباد الله أرجو الله وأخافه، والله لن تزالوا بالرجل حتى تهلكوه[٣].

وأورد ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في الإصابة بسند جيد عن نافع قال: كان ابن عمر إذا قرأ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، بكى حتى يغلبه البكاء.

قال: وعن ابن سعد بسند صحيح قيل لنافع: ما كان ابن عمر يصنع في بيته؟ قال: الوضوء لكل صلاة والمصحف فيما بينهما، قال: وعند الطبراني وهو في الحلية بسند جيد

---

(١) «شرح السنة» للبغوي (١٤/ ٣٧٣-٣٧٤).

(٢) «الداء والدواء» ص [٦١-٦٢].

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٣٦) ط. الرسالة.

عن نافع قال: كان ابن عمر يحيي الليل صلاة ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟ فيقول: لا فيعاود فإذا قال: نعم قعد يستغفر حتى يصبح[١].

وهذا أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يقول: إن أشد ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي: يا أبا الدرداء، قد علمت؛ فكيف عملت فيما علمت.

وكان عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع.

وكان أبو ذر يقول: يا ليتني كنت شجرة تعضد، وددت أني لم أخلق.

وقرأ تميم الداري ليلة سورة الجاثية فلما أتى على هذه الآية ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ [الجاثية: ٢١]. جعل يرددها ويبكي حتى أصبح[٢].

سائرون على الدرب

ومن بعد الصحابة يسير موفقون من عباد الله يقتفون أثر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، ويتبعون هديهم، فيكون لهم من الفضل الشيء العظيم، ومن سار على الدرب وصل، وأول الغيث قطرة، ورحلة الألف ميل تبدأ بخطوة؛ فانهض من كبوتك، واستيقظ من رقدتك، واستمسك بهدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصالحين من بعده وهذه صفحة من حياة المتقين بعد هذه اللمحة عن صحابة النبي الأمين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

كان علي بن الحسين إذا توضأ اصفر وتغير، فيقال: مالك؟ فيقول: أتدري بين يدى من أريد أن أقوم[٣]؟!

---

(١) «الإصابة» للحافظ ابن حجر (٣/ ٢٥٧) ط. دار الفكر.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١/ ٤٩٧).

(٣) «مختصر منهاج القاصدين» [٣٢٠] ط. دار العقيدة.

وعن قبيصة بن قيس العنبري قال: كان الضحاك بن مزاحم إذا أمسى بكى فيقال له: ما يبكيك؟ فيقول: لا أدري ما صعد اليوم من عملي[١].

وعن القاسم بن محمد قال: كنا نسافر مع ابن المبارك فكثيرًا ما كان يخطر ببالي فأقول في نفسي: بأي شيء فضل هذا الرجل علينا حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة إن كان يصلي إنا لنصلي، ولئن كان يصوم إنا لنصوم، وإن كان يغزو إنا لنغزو، وإن كان يحج إنا لنحج.

قال: فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلة نتعشى في بيت إذ طفئ السراج، فقام بعضنا وأخذ السراج وخرج يستصبح، فمكث هنيهة، ثم جاء بالسراج فنظرت إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع فقلت في نفسي: بهذه الخشية فضل هذا الرجل علينا ولعله حين فقد السراج فصار إلى الظلمة ذكر القيامة[٢].

وحكى القاضي حسين عن القفال أستاذه أنه كان في كثير من الأوقات يقع عليه البكاء حالة الدرس ثم يرفع رأسه ويقول:ما أغفلنا عما يراد بنا[٣].

وعن حفص بن عمر قال: بكى الحسن فقيل: ما يبكيك؟ قال: أخاف أن يطرحني غدًا في النار ولا يبالي.

وقال مالك بن دينار: قالت ابنة الربيع بن خثيم: يا أبت مالك لا تنام والناس ينامون؟ فقال: إن النار لا تدع أباك ينام.

---

(١) «صفة الصفوة»[٤/ ١٥٠].

(٢) «صفة الصفوة» (٤/ ١٤٥) ط. دار الوعي بحلب، وقد تعددت الطبعات التي رجعت إليها أحيانًا لأنني قد ترددت على أكثر من مكتبة فما لم أجده في مكتبتي من الكتب أضطر إلى الذهاب إلى المكاتب الكبيرة من حولي.

(٣) «سير أعلام النبلاء للذهبي» (١٧/ ٤٠٧).

وعن ابن مهدي قال: ما كان سفيان الثوري ينام إلا أول الليل ثم ينهض فزعًا مرعوبًا ينادي: النار النار، شغلني ذكر النار عن النوم والشهوات ثم يتوضأ ويقول على إثر وضوئه: اللهم إنك عالم بحاجتي غير معلم، وما أطلب إلا فكاك رقبتي من النار.

وفي هذا المعنى يقول ابن المبارك:

إذا ما الليل أظلم كابدوه ... فيسفر عنهم وهم ركوع

أطار الخوف نومهم فقاموا ... وأهل الأمن في الدنيا هجوع

وقال إسماعيل السدى: قال الحجاج لسعيد بن جبير: بلغني أنك لم تضحك قط قال: كيف أضحك وجهنم قد سعرت، والأغلال قد نصبت، والزبانية قد أعدت[١].

وقال ذر بن عمر بن ذر لأبيه: ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد، فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب فقال: يا بني، ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة[٢].

وقال هرم بن حيان: وددت والله أني شجرة أكلتني ناقة ثم قذفتني بعرًا، ولم أكابد الحساب يوم القيامة، إني أخاف الداهية الكبرى.

وكان محمد بن واسع يبكي عامة الليل لا يكاد يفتر وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير ويبكي حتى تجري دموعه على لحيته وبكى ليلة فبكى أهل الدار فلما تجلت عنهم العَبْرة قالت فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين مم بكيت؟ قال: ذكرت منصرف القوم من بين يدي الله تعالى فريق في الجنة وفريق في السعير[٣].

---

(١) «التخويف من النار» للحافظ ابن رجب [٤٩-٥١] ط. دار الإيمان.

(٢) «الإحياء» (٤/ ١٩٧) ط. الدار المصرية اللبنانية.

(٣) «مختصر منهاج القاصدين» ص [٣٢٠] ط. دار العقيدة ١٩٩١.

وكان مالك بن دينار يقول: لو استطعت ألا أنام لم أنم مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدت أعوانًا لفرقتهم ينادون في سائر الدنيا كلها: أيها الناس النار النار[١].

قال عبد الله بن مرزوق: بلغني أن مالك بن دينار دخل المقابر ذات يوم فإذا رجل يدفن فجاء حتى وقف على القبر فجعل ينظر إلى الرجل وهو يدفن فجعل يقول: مالك غدًا هكذا يصير وليس له شيء يتوسده في قبره، فلم يزل يقول: غدًا مالك هكذا يصير حتى خرَّ مغشيًا عليه في جوف القبر فحملوه وانطلقوا به إلى منزله مغشيًا عليه[٢].

وعن محمد بن يزيد بن خنيس قال: قال رجل لعبد العزيز بن أبي رواد كيف أصبحت؟ فبكى وقال: أصبحت والله في غفلة عظيمة عن الموت مع ذنوب كثيرة قد أحاطت بي وأجل يسرع بي، كل يوم في عمري، وموئل لست أدري علام أهجم ثم بكى[٣].

وهذا إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول عنه المروذي: كان أبو عبد الله إذا ذكر الموت خنقته العَبْرة وكان يقول: يمنعني الطعام والشراب، وإذا ذكرت الموت هان عليَّ كل أمر الدنيا، إنما هو طعام دون طعام، ولباسٌ دون لباس، وإنما أيام قلائل، ما أعدل بالفقر شيئًا، ولو وجدت السبيل لخرجت حتى لا يكون لي ذِكْر[٤].

قال مهدي بن ميمون: رأيت حسان بن أبي سنان -أحسبه قال في مرضه- فقيل له كيف تجدك؟ قال: بخير إن نجوت من النار فقيل له: فما تشتهي؟ قال: ليلة بعيدة ما بين الطرفين أحيي ما بين طرفيها[٥].

---

(١) «الزهد» لأحمد ص [٣٩١].

(٢) «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٣/ ١٩٩) ط. دار المعرفة.

(٣) «صفة الصفوة» (١/ ٤٥٠) ط. دار المنار.

(٤) «السير للذهبي» (١١/ ٢١٦).

(٥) «صفة الصفوة» (٣/ ٢٤٠) ط. دار المعرفة.

وهـذا عطاء السـلمي ولـه في الخوف أخبار غزار تشـير إلى قلـب أواب مخبت قال صالـح المـري قلت لعطاء السـلمي: ما تشـتهي؟ فبكى وقال: أشـتهي والله يا أبا بشر أن أكـون رمـادًا لا تجتمـع منه سـفة أبـدًا في الدنيا ولا في الآخـرة قال صالـح: فأبكاني والله وعلمت أنه إنما أراد النجاة من عسر الحساب.

قـال بـشر بن منصور: كان عطاء السـلمي يقول: رب ارحـم في الدنيا غربتي، وفي القبر وحدتي وطول مقامي غدًا بين يديك.

قال بشر بن منصور أيضًا: قلت لعطاء السـلمي: يا عطاء لماذا الحزن؟ قال: ويحك المـوت في عنقي، والقـبر بيتي، وفي القيامـة موقفي، وعلى جسر جهنـم طريقي، وربي لا أدري ما يصنع بي ثم تنفس فغشي عليه[١].

وهذا زين القراء محمد بن واسع، قال محمد بن عبد الله الزراد: رأى محمد بن واسع ابنًا له وهو يخطر بيده[٢]، فقال: ويحك تعال، تدري من أنت؟ أمك اشتريتها بمائتي درهم وأبوك فلا أكثر الله في المسلمين مثله، تمشي هذه المشية؟!

وعن زياد بن الربيع عن أبيه قال: رأيت محمد بن واسع بسوق مرو يعرض حمارًا له على البيع فقال له رجل: أترضاه لي؟ قال: لو رضيته لك لم أبعه.

قال قاسم الخواص قال محمد بن واسع لرجل: هل أبكاك قط سابق علم الله عَزَّوَجَلَّ فيك؟!

قال يونس بن عبيد: دخلنا على محمد بن واسع نعوده، فقال: ما يغني عني ما يقول الناس إذا أخذ بيدي ورجلي فألقيت في النار[٣]؟!

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٢٣٣).

(٢) أي: يختال في مشيته ويتبختر فيها.

(٣) «صفة الصفوة» (٣/ ١٩٤).

وقال الفضل بن عياض: قيل لسليمان التيمي: أنت أنت من مثلك؟ قال: لا تقولوا هكذا، لا أدري ما يبدو لي من ربي عَزَّوَجَلَّ؟ سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧][(١)].

وعن سعيد بن عامر الضبعي قال: مرض سليمان التيمي فبكى فقيل: ما يبكيك؟ قال: مررت على قَدَرِيٍّ فسلمت عليه فأخاف الحساب عليه[(٢)].

نزل الحجاج في بعض أسفاره بماء بين مكة والمدينة فدعا بغدائه، ورأى أعرابيًا فدعاه إلى الغداء معه فقال له: دعاني من هو خير منك فأجبته قال: ومن هو؟ قال الله تعالى دعاني إلى الصيام فصمت قال: في هذا الحر الشديد؟ قال: نعم، صمت ليوم هو أشد منه حرًا، قال: فأفطر وصم غدًا قال: إن ضمنت لي البقاء إلى غدٍ قال: ليس ذلك إليَّ قال: فكيف تسألني عاجلًا بآجل لا تقدر عليه؟!

خرج ابن عمر في سفر معه أصحابه فوضعوا سفرة لهم فمر بهم راع فدعوه أن يأكل معهم قال: إني صائم فقال ابن عمر: في مثل هذا اليوم الشديد حره وأنت في هذه الشعاب في آثار هذه الغنم وأنت صائم؟! فقال: أبادر أيامي هذه الخالية فعجب منه ابن عمر فقال له: هل لك أن تبيعنا شاة من غنمك ونطعمك من لحمها ما تفطر عليه ونعطيك ثمنها؟ قال: إنها ليست لي وذكر أنها لمولاه قال: فما عسيت أن يقول لك مولاك إن قلت أكلها الذئب فمضى الراعي وهو رافع إصبعه إلى السماء وهو يقول: فأين الله؟ فلم يزل ابن عمر يردد كلمته هذه فلما قدم المدينة بعث إلى سيد الراعي فاشترى منه الراعي والغنم فأعتق الراعي ووهب له الغنم.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٢٠٠)، و«صفة الصفوة» (٣/ ٢١٤).

(٢) «السير للذهبي» نفس الصفحة السابقة، وقد خاف سليمان من الله عَزَّوَجَلَّ لأنه سلم على رجل من القدرية فكيف بمن يفتح أذنه وعقله لأهل البدع والضلال لاسيما في هذا العصر الذي كثرت فيه الشبهات المغرضة؟

وكان أبو الدرداء يقول: صوموا يومًا شديدًا حره لحر يوم النشور، وصلوا ركعتين في ظلمة الليل لظلمة القبور[١].

هذه لمحة من سيرة الصالحين توقظ بسياط وعظها قلوب الغافلين، وذلك حينما يستشعر المرء خطورة ما يقدم عليه ويعلم هيبة الموقف بين يدي الله وشدته وهو لا يدري كيف يكون حسابه بين يدي الله، وهل يتجاوز الله عن سيئاته أم يعاقبه بها، وهل سيدخل الجنة أم سيحترق في نار الجحيم؟!

هل سيلقى الله يوم القيامة وهو راض عنه أم سيلقى الله وهو عليه غضبان؟! إن القلب الحي ليتفطر من الخوف، ويتمزق من خشية الملك العزيز الجبار؟! إن كثيرًا منا يعيش في غرور ويظن أنه سيكون يوم القيامة من المقربين مع قعوده وتكاسله عن الطاعة، بل واقترافه لما حرم الله عليه، ويقول: إني أحسن الظن وكذب فلو أحسن الظن لأحسن العمل، فليس الإيمان بالتمني وإنما ما وقر في القلب وصدقه العمل، إن المرء يفزع حينما يقرأ في حديث الشفاعة قول خاصة الله وصفوته من خلقه وهم أرفع الأنبياء مقامًا ومكانة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وكلهم يقول: «**إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله نفسي نفسي أذهبوا إلى غيري**»[٢]، ويذكر آدم أكله من الشجرة ويذكر إبراهيم كذباته الثلاث وكلها كانت في ذات الله، ويذكر نوح أنه سأل ربه بغير علم، ويذكر موسى أنه قتل نفسًا لم يؤمر بقتلها صلوات الله عليهم وسلامه إذا كان هذا فزعهم وخوفهم وكربهم يوم القيامة؛ فكيف يكون حالي وحالك؟! كيف يكون شأني وشأنك يوم القيامة بين يدي الله جَلَّ جَلَالُهُ؟! إن الخطب جلل وإن الكرب عظيم، ولكننا عنه غافلون، إنه ينبغي لنا أن نشمر عن ساعد الجد ونبذل النفس والأنفاس والروح والدماء وكل ما نملك قربة لربنا، وطلبًا لمرضاته وفكاكًا للنفوس من عذابه،

---

(١) «لطائف المعارف» ص [٤٧٦] ط. دار ابن رجب.

(٢) كما في حديث الشفاعة المشهور رواه البخاري برقم [٣٣٤٠]، ومسلم برقم [١٩٤].

لازلنا بحمد الله في دار العمل، فهيا سارع وبادر إلى طاعة ربك، هيا استيقظ من غفلتك وأكثر من القيام والصيام، وتلاوة القرآن والدعوة إلى الله وتعلم العلم وتعليمه واستقم على الطاعات واستمسك بها، واحذر المعاصي والمخالفات؛ فإنها توقعك في سخط الله وغضبه وعذابه، وإذا غلبتك نفسك ووقعت في معصية فسارع بالتوبة منها والإقلاع عنها، وخفف حملك ليسهل حسابك عند وقوفك غدًا بين يدي ربك فقد قال ربنا: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].

أي أخي، أرأيت هذه الجبال الصم الصلاب الجامدة إنه لو نزل عليها القرآن وفهمت معانيه لخشعت وتصدعت من خشية الله؛ فما لك أنت لا يرق قلبك ولا يخشع ولا يتصدع من خشية الله وقد فهمت عن الله أمره؟! ما لقلبك قاسيًا جافيًا؟! أين قلبك عند تلاوة القرآن؟! أين قلبك عندما يخاطبك الله رب العالمين بكلامه العظيم المبين؟! لا أدري لماذا قست قلوبنا إلى هذه الدرجة، وجفت عيوننا إلى هذا الحد؟! إن عظات القرآن تقلق وتوقظ كل من تدبرها فأحضر قلبك وانظر كيف يكون حال الجبل لو نزل عليه القرآن قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]. وكذلك الحجارة الصلدة الصلبة تخشع لله وتخشاه قال ربنا جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]. أيُّ: قلب ذاك القلب الذي يسمع مثل هذا الكلام فلا يلين أو يخشع ويستكين؟!

عظات مؤثرة وكلمات نافعة

قال بعض العلماء: من قطع عضوًا منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لا تأمن أن تكون عاقبته في الآخرة على نحو هذا.

وكان الحسن البصري يقول: إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة يقول أحدهم: لأني أحسن الظن بربي، وكذب لو أحسن الظن لأحسن العمل.

وسأل رجل الحسن: يا أبا سعيد، كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير؟ فقال: والله لأن تصحب أقوامًا يخوفونك حتى تدرك أمنًا خير من أن تصحب أقوامًا يؤمنونك حتى تدركك المخاوف(١).

قال أبو الوفاء ابن عقيل: احذر ولا تغتر به، فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم، وجلد الحد في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت امرأة النار في هرة، واشتعلت الشملة نارًا على من غلها وقد قتل شهيدًا.

وقال بعض السلف: إذا رأيت الله عَزَّوَجَلَّ يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فاحذره، فإنما هو استدراج يستدرجك به، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

وقال بعض السلف: رب مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم، ورب مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم، ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم(٢).

---

(١) «الداء والدواء» لابن القيم ص [٣٦] ط. دار ابن رجب.

(٢) السابق ص [٥١-٥٢].

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أعجب العجب سرورك بغرورك، وسهوك في لهوك، عما قد خبئ لك، تغتر بصحتك وتنسى دنو السقم، وتفرح بعافيتك غافلًا عن قرب الألم، لقد أراك مصرع غيرك مصرعك، وأبدى مضجع سواك -قبل الممات- مضجعك، وقد شغلك نيل لذاتك عن خراب ذاتك.

كأنك لم تسمع بأخبار من مضى ... ولم تر في الباقين ما يصنع الدهر

فإن كنت تدري فتلك ديارهم ... محاها مجال الريح بعدك والقبر

وكم رأيت صاحب منزل ما نزل لحده حتى نزل! وكم شاهد والى قصر وليه عدوه لما عُزل! فيا من كل لحظة إلى هذا يسري، وفعله فعل من لايفهم ولا يدري.

وكيف تنام العين وهي قريرة ... ولم تدر أى المحلين تنزلُ[1]

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سبحان الملك العظيم الذي من عرفه خافه، وما أمن مكره قط من عرفه، لقد تأملت أمرًا عظيمًا، إنه عَزَّوَجَلَّ يمهل حتى كأنه يهمل، فترى أيدي العاصين مطلقة كأنه لا مانع، فإذا زاد الانبساط ولم تدعو العقول أخذ أخذ جبار، وإنما كان ذلك الإمهال ليبلو صبر الصابر، وليملي في الإمهال للظالم، فيثبت هذا على صبره، ويجزي هذا بقبيح فعله، مع أن هنالك من الحلم في طي ذلك ما لا نعلمه، فإذا أخذ أخذ عقوبة رأيت على كل غلطة تبعة، وربما جمعت فضرب العاصي بالحجر الدافع، وربما خفي على الناس سبب عقوبته، فقيل: فلان من أهل الخير فما وجه ما جرى له؟ فيقول القدر: حدود لذنوب خفية صار استيفاؤها ظاهرًا، فسبحان من ظهر حتى لا خفاء به، واستتر حتى كأنه لا يعرف، وأمهل حتى طمع في مسامحته، وناقش حتى تحيرت العقول من مؤاخذته، لا حول ولا قوة إلا بالله[2].

---

(١) «صيد الخاطر» لأبي الفرج ابن الجوزي ص [١٣] ط. دار الحديث بالقاهرة.

(٢) «صيد الخاطر» ص [١٥٨].

كذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يا متحيرًا في طريقه قد بان البيان، يا بليد الاعتبار وقد أنذره القرآن، يا من تقرع قلبه المواعظ وهو قاس ما لان، لو حضرت بالذهن كفاك زجر القرآن.

كان الربيع بن خثيم يقول: أما بعد، فأعد زادك، وجد في جهازك، وكن وصي نفسك.

وكان إذا جنه الليل لا ينام فتناديه أمه: ألا تنام؟ فيقول: يا أماه من جن عليه الليل وهو يخاف البيات حق له أن لا ينام[1].

وقال: يا دائم الخطايا والعصيان، يا شديد البطر والطغيان، ربح المتقون ولك الخسران: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦].

يا معتكفًا على زلله وذنبه، لا يؤثر عنده أليم عتبه، أما المِصرُّ فقد طمس على قلبه؛ فلا ينفعه وعظ اللسان ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾.

كم خوفت وما تخاف، يا من إذا أمر بالعدل حاف، الويل لك يا صاحب الإسراف ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾.

لو رأيت أهل الزيغ والعناد، وأرباب المعاصي والفساد مقرنين في الأصفاد ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾.

قد سدت في وجوههم الأبواب، وغضب عليهم رب الأرباب، والنار شديدة الالتهاب، والعذاب فيها ألوان: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾.

أعرض عنهم الرحيم، ومنعهم خيره الكريم، يتقلبون في الجحيم ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ سعيرهم قد أحرق، وزمهريرهم قد مزق، ونور المتقين قد أشرق: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤].

---

(١) «التبصرة» لابن الجوزي (١/ ٨٨) ط. دار الحديث.

سارت بهم إلى الجد المطايا فأجزلت لهم جزيل العطايا، ولأرباب الخطايا النيران، منَّ عليهم بنعيم ما مُنَّ، لا يخطر لمن يتوهم ويظن، وقد كفانا صفة الحور من وصفهم: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨].

أيها العاصي، قد اجتهدنا في صلاحك، وعرضنا في التجارة لأرباحك، وأنت على المعاصي في مسائك وصباحك، وبَعْدُ ما نيأس من فلاحك: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[(١)].

حقيق بمن علم ما بين يديه، وتيقن أن العمل يحصى عليه، وأنه لابد من الرحيل عما لديه، إلى موقف صعب يُساق إليه، أن يتجافى عن مضجع البطالة بجنبيه.

ما من قد وهى شبابه، وامتلأ بالزلل كتابه، أما بلغك أن الجلود إذا استشهدت نطقت، أما علمت أن النار للعصاة خلقت؟! وأنها تحرق كل من يلقى فيها، والتوبة تحجب عنها والدمعة تطفيها[(٢)]؟!

وكيف بك إذا أحضرت في حال كتيب، وعليك ذنوب أكثر من رمل كثيب، والمهيمن الطالب والعظيم الحسيب، فحينئذٍ يبعد عنك الأهل والنسيب، والنوح أولى بك يا مغرور من التشبيب، أتؤمن أم عندك تكذيب، أم تراك تصبر على التعذيب كأنك بدمع العين ومائها قد أذيب، اقبل نصحي وأقبل على التهذيب ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

يا طالبًا بأعماله، يا مسئولًا عن أفعاله، يا مكتوبًا عليه جميع أقواله، يا مناقَشًا على كل أحواله، نسيانك لهذا أمر عجيب، أتسكن إلى العافية، وتساكن العيشة الصافية، وتظن أيمان الغرور واقية لابد من سهم مصيب ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

---

(١) «التبصرة» لابن الجوزي (٢/ ٥٥٨) ط. دار الحديث.

(٢) السابق (١/ ٦٦-٦٧).

لو أحسنت الخلاص أحسنت، لو آمنت بالعرض لتجملت وتزينت، يا من قد انعجمت عليه الأمور لو سألت لتبينت، ويحك أحضر قلبك فإنما أنت في الدنيا غريب، إلى متى أنت مع أغراضك؟! متى ينقضي زمن إعراضك؟! يا زمن البلى متى زمن انهاضك، تالله لقد كَلَّ من أمراضك الطبيب ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾[1].

أنواع الخوف

الخوف من أصول الإيمان، ولن يستقيم سير العبد إلى ربه إلا بخوف يدفعه إلى العمل الصالح واجتناب السوء والحرام، وهذه أنواع من الخوف نسوقها توضيحًا لحقيقته وحثًا للنفوس على تحقيقها والاعتبار بها ومن هذه الأنواع ما يلي:

أولًا - خوف مقام الله ووعيده:

قال الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾. [النازعات: ٤٠-٤١]

وقال تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤]، قال بعض أهل العلم بالتفسير كالطبري والشوكاني والشنقيطي وغيرهم خوف مقام الله عَزَّوَجَلَّ يعني أمرين:

الأول- خوف قيام الله على عبده بالمراقبة والاطلاع والقدرة فيخاف العبد اطلاع ربه عليه وقدرته عليه.

والثاني- خوف العبد من قيامه بين يدي الله يوم القيامة حيث يحاسبه ربُّه جَلَّوَعَلَا.

وثمة معنى ثالث ذُكر في آية إبراهيم وهو خوف الوعيد وهو الخوف من عذاب الله الذي أوعد الله به عباده، فيخشى العبد أن يحرق في نار جهنم، وأن يدخلها بذنوبه

---

(١) السابق (١/ ٨٦).

إن لم يتداركه الله برحمته ولذا كان من دعاء عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥-٦٦]، وكان كذلك من دعاء أولي الألباب: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩١-١٩٢].

إن المؤمن التقي، صاحب القلب الخائف الحي، إذا ذكر عذاب الله انتفض قلبه، وتألمت نفسه، وفزع فؤاده، وبكت عينه؛ لأنه لا يدري هل ينجو منه أم لا؟! ولأنه يعلم شدة ذلك العذاب وخطورته تأمل على سبيل المثال قول ربك ذي العزة والجلال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧]، وتدبر بقلبك قول ربي وربك: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ۝١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ۝١٠٤ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٠٥ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝١٠٦ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ۝١٠٧ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٣-١٠٨]. وعظ قلبك ونبه فؤادك من غفلته ورقدته بتفكرك في قول الله تعالى: ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩-٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٠ وَلَنُذِيقَنَّهُم

مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة: ٢٠-٢٢]، وفي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة لرجل يوضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه ما يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا وإنه لأهونهم عذابًا**»(١)، اللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك، اللهم عاملنا بما أنت أهله ولا تعاملنا بما نحن أهله، اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا، اللهم إنا نسألك رضاك والجنة ونعوذ بك من سخطك والنار.

ثانيًا- الخوف من أهوال القيامة:

من أهم أنواع الخوف خوف المؤمن من الآخرة، ووجل قلبه من ذلك اليوم العظيم، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]. إنه ذلك اليوم العظيم الذي شيب ذكره الرءوس وأقلق الحديث عنه النفوس المؤمنة، حينما يتذكر المرء شدة حره وطوله وما يكون فيه من أهوال عظيمة يندهش والله عقله، ويفزع والله قلبه، ويمتلئ بالخوف والرعب فؤاده قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١]. وأمر الله رسوله بإنذار الناس بذلك اليوم وتحذيرهم مما يكون فيه قال الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨]. وقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم: ٣٩]. وقال جل وعلا: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٤]. وقد بين ربنا في كتابه أن خوف ذلك اليوم من أهم صفات المؤمنين

---

(١) رواه البخاري برقم [٦٥٦١]، ومسلم برقم [٢١٣].

الصالحين، وأن من أهم الدوافع التي تدفعهم لعمل الصالحات خوفهم من ذلك اليوم قال الله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

وقال تعالى عنهم كذلك: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الإنسان: ٩-١١]. ولهذا فزع المتقون عند ذكرهم لهذا اليوم واشتد خوفهم وقلقهم مما يكون فيه.

هذا عبد الله بن مسعود يقول عن نفسه: إن هاهنا رجلًا ود لو أن القيامة قامت ألا يبعث.

وبكى مسعر بن كرام يومًا فقالت له أمه: ما يبكيك يا بني؟ فقال: يا أماه لمثل ما نهجم عليه غدًا فلنطل البكاء قالت: وماذاك؟ فانتحب وقال: القيامة وما فيها ثم غلبه البكاء فقام.

وقال الحسن البصري: يحق لمن يعلم أن الموت مورده، وأن الساعة موعده، وأن القيام بين يدي الله مشهده أن يطول حزنه.

وتنفس الحسن البصري مرة تنفسًا شديدًا ثم بكى حتى رعدت منكباه ثم قال: لو أن بالقلوب حياة، لو أن بالقلوب صلاحًا لبكيتم من ليلة صبيحتها يوم القيامة.

وكان الفضيل بن عياض يقول: لو خيرت أن أعيش كلبًا وأموت كلبًا ولا أرى يوم القيامة لاخترت ذلك.

وقال مرة: ما أغبط ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا يعاين القيامة وأهوالها ما أغبط إلا من لم يكن شيئًا.

وهـذا عبـد الله بن وهب ألف كتابًا عن أهـوال القيامة فلما قـرئ عليه الكتاب خرَّ مغشيًا عليه فلم يتكلم بكلمة حتى مات بعد أيام.

استحضر حالك في هذا اليوم كيف يكون يا عبد الله، توهم نفسك بذلك وضعفك وشـدة ما ترى وتشـاهد من أهوال عظيمة تفزع النفوس، وتشيب الرؤوس، القيامة آتية لا ريب فيها، وسوف تحاسب بين يدي الله فماذا أعددت لذلك اليوم؟! وبأي عمل تقدم يوم القيامة على ربك؟! وكيف يكون حالك؟! وإلى أي الدارين سيذهب بك؟!

ثالثًا- الخوف من سوء الخاتمة:

لقـد قطـع خوف الخاتمة ظهـور المتقين، وكأن المسـيئين قد أخـذوا توقيعًا بالأمان، ولقد كان من دعاء عباد الله المفلحين الذين هم أولو الألباب قولهم: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨]، بل لقد كان من دعاء سيد الخلق وإمام المتقين رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[(١)]، ومما يقلق ويـؤلم ويثير الخـوف العظيم في القلوب أن من الناس من يظـل على طاعة مدة طويلة من الزمـان ثم ينتكس ويرتكس، ويعمل بعمل أهـل النار ثم يختم له به، وكم من الناس من سقط في مهاوي الانحراف ومواطن الزور والزلل بعد أن مشى في طريق الاستقامة مدة مـن الزمان، نعـوذ بالله من الحور بعد الكـور، ومن الضلالة بعد الهدى، قال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا عليكم أن لا تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختم له**»[(٢)].

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٢٩٤)، والترمذي برقم [٣٥٢٢].

(٢) رواه أحمد (٣/ ١٢٠)، وأبو يعلى [٣٨٤٠]، وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم [١٣٣٤].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل الجنة، ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له بعمل أهل الجنة**»(١)، وفي صحيح البخاري قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما الأعمال بالخواتيم**»(٢).

وتأمل هذا المشهد المفزع لرجل كان يجاهد في سبيل الله مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل إنه ظهر منه البذل والتضحية في جهاده لكنه ختم له بالنار والعياذ بالله، ما السبب؟ إنما كان السبب سوء انطوى عليه قلبه فظهرت الحقائق عند السكرات، وبدت السوآت لحظة الممات، اللهم يا ربنا أصلح سرائرنا وطهر قلوبنا وقنا شر نفوسنا.

روى البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التقى هو والمشركون وفي أصحابه رجل لا يدع شاذة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه فقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هو من أهل النار**» فقال رجل من القوم أنا صاحبه، فاتبعه فجرح الرجل جرحًا شديدًا، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه على الأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه فخرج الرجل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أشهد أنك رسول الله وقص عليه القصة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة**»(٣)، قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله: «**فيما يبدو للناس**» إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك، وأن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس، إما من جهة عمل سيئ لا يطلع عليه أو من جهة اعتقاد سيء ونحو ذلك فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت وكذلك قد يعمل الرجل عمل أهل النار وفي

---

(١) رواه مسلم برقم [٢٦٥١].

(٢) رواه البخاري برقم [٦٤٩٣].

(٣) رواه البخاري برقم [٢٨٩٨]، ومسلم برقم [١١٢].

باطنه خصلة خفية من خصال الخير فتغلب عليه تلك الخصلة في آخر عمره فتوجب له حسن الخاتمة[١].

ويقول: قال عبد العزيز بن أبي رواد: حضرت رجلًا عند الموت يلقن لا إله إلا الله فقال في آخر ما قال: هو كافرٌ بما تقول ومات على ذلك، قال: فسألت عنه فإذا هو مدمن خمر فكان عبد العزيز يقول: اتقوا الذنوب فإنها هي التي أوقعته.

وفي الجملة فالخواتيم ميراث السوابق، وكل ذلك سبق في الكتاب السابق، ومن هنا كان يشتد خوف السلف من سوء الخواتيم، ومنهم من كان يقلق من ذكر السوابق وقد قيل: إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم يقولون: بماذا يختم لنا؟ وقلوب المقربين معلقة بالسوابق يقولون: ماذا سبق لنا؟

وقال بعض السلف: ما أبكى العيون ما أبكاها الكتاب السابق.

وقال سفيان لبعض الصالحين: هل أبكاك قط علم الله فيك؟! فقال له ذلك الرجل تركتني لا أفرح أبدًا.

وكان سفيان يشتد قلقه من السوابق والخواتيم فكان يبكي ويقول: أخاف أن أكون في أم الكتاب شقيًا، ويبكي ويقول: أخاف أن أسلب الإيمان عند الموت.

وكان مالك بن دينار يقوم طول ليله قابضًا على لحيته ويقول: يارب قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار ففي أي الدارين منزل مالك؟

وقال سهل التستري: المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر. ومن هنا كان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق ويشتد قلقهم وجزعهم منه، فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر، ويخاف أن

(١) «جامع العلوم والحكم» للحافظ ابن رجب ص [١٢١] ط. دار ابن رجب.

يغلب ذلك عليه عند الخاتمة فيخرجه إلى النفاق الأكبر كما تقدم أن دسائس السوء الخفية توجب سوء الخاتمة[١].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال العلماء: وإذا كانت الهداية إلى الله مصروفة، والاستقامة على مشيئته موقوفة، والعاقبة مغيبة، والإرادة غير غالبة، فلا تعجب بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك وجميع قربك، فإن ذلك وإن كان من كسبك فإنه من خلق ربك وفضله الدارِّ عليك خيره، فمهما افتخرت بذلك كنت كالمفتخر بمتاع غيره، وربما سلب عنك فعاد قلبك من الخير أخلى من جوف البعير، فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم، فأصبحت وزهرها يابس هشيم، إذ هبت عليها الريح العقيم، كذلك العبد يمسي وقلبه بطاعة الله مشرق سليم، فيصبح وهو بالمعصية مظلم سقيم[٢]، اللهم أصلح سرائرنا، وأحسن ختامنا، واجعل آخر كلامنا من الدنيا ذكرك ومتعنا في الآخرة بالنظر إلى وجهك الكريم، إنك أنت الرحيم الودود.

رابعًا- الخوف من الشرك وحبوط العمل:

قال الله العليم الحكيم عن خليله إبراهيم: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦]، الشاهد من هذه الآية أن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ خاف الشرك وهو إمام الحنفاء وهو سيدهم ماعدا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ[٣].

قوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ أي: اجعلني وبني في جانب عن عبادة الأصنام وباعد بيننا وبينها، وقد استجاب الله تعالى دعاءه وجعل بنيه أنبياء وجنبهم

---

(١) السابق ص [١٢١-١٢٢].

(٢) «التذكرة» للقرطبي [٤٩-٥٠] ط. دار الغد الجديد.

(٣) «القول المفيد بشرح كتاب التوحيد» ص [٧٧]، ط. دار ابن الجوزي.

عبادة الأصنام وقد بين ما يوجب الخوف من ذلك بقوله: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فإنه هو الواقع في كل زمان فإذا عرف الإنسان أن كثيرًا وقعوا في الشرك الأكبر وضلوا بعبادة الأصنام أوجب ذلك خوفه من أن يقع فيما يقع فيه الكثير من الشرك الذي لا يغفره الله، قال إبراهيم التيمي: ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم[١]؟!

ولقد خاف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أمته الشرك وحذرهم منه كما في المسند من حديث محمود بن لبيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» فسئل عنه فقال: «**الرياء**»[٢].

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثًا قالوا: بلى يا رسول الله قال: «**الإشراك بالله وعقوق الوالدين ...**»**الحديث**[٣]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اجتنبوا السبع الموبقات الشرك بالله ....**» **الحديث**[٤]، وذلك التحذير النبوي من الشرك لأن خطورة الشرك عظيمة إذ يخلد صاحبه في النار ولا يخرج منها أبدًا قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ [المَائِدَة :٧٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النِّسَاء :٤٨]، فليحذر المؤمن من الوقوع في الشركيات، وليحترس كل الاحتراس منها؛ فهي أخطر ما يخاف عليه، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، وليعلم أن الشرك يحبط كل عمل ويفسد كل ما كان قبله من طاعات وقربات قال الله تعالى لخير من وحده وعبده واتقاه: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزُّمَر :٦٥-٦٦]، وقال ربنا بعد أن ذكر

(١) «فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد» [٦٤-٦٥] ط. دار الريان.

(٢) رواه أحمد (٥/ ٤٢٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» ص [١٥٥٥].

(٣) رواه البخاري برقم [٢٦٥٤]، ومسلم برقم [٨٧].

(٤) رواه البخاري برقم [٢٧٦٦]، ومسلم برقم [٨٩].

ثمانية عشر نبيًا في سورة الأنعام وبين أنه سبحانه قد هداهم ودعا رسوله إلى الاقتداء بهم ولكنه عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، ولمزيد الفائدة فإن هناك أعمالًا أخرى تحبط الأعمال غير الشرك يجب الاحتراس منها واجتنابها فمن ذلك.

الرياء ففي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»(١).

ومن ذلك: المن والأذى قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. [البقرة: ٢٦٤]

ومن ذلك: التألي على الله كأن يقول والله لا يغفر الله لفلان كما عند مسلم في الصحيح أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حدَّث أن رجلًا قال: «**والله لا يغفر الله لفلان وإن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان فقد غفرت له وأحبطت عملك**»(٢)، وفي سنن أبي داود من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال سمعت رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصر، فوجده يومًا على ذنب فقال له: أقصر، فقال: خلني وربي أبعثت عليَّ رقيبًا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك أولا يدخلك الجنة فقبض أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالمًا؟ أوكنت على ما في يدي قادرًا؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار**» قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته(٣).

(١) رواه مسلم برقم [٢٩٨٥].
(٢) رواه مسلم برقم [١٦٢١].
(٣) رواه أبو داود [٤٩٠١].

ومن ذلك: رفع الصوت على صوت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والجهر له بالقول وتقديم الآراء والأهواء والأعراف على قول الله وقول رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢].

ومن ذلك: ترك صلاة العصر؛ فقد روى البخاري من حديث بريدة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله**»(١).

خامسًا- الخوف من عدم القبول:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧]. فهما في عمل صالح، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما كما روى ابن أبي حاتم عن وهيب بن الورد أنه قرأ ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآ ﴾ ثم يبكي ويقول: يا خليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق أن لا يتقبل منك. وهذا كما حكى الله تعالى حال المؤمنين الخلص في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ ﴾ أي: يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات ﴿ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ ﴾ أي: خائفة أن لا يتقبل منهم(٢).

وعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سألت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه الآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. قالت عائشة رضي الله عنها: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون قال: لا يابنت الصديق ولكنهم الذين يصومون

(١) رواه البخاري برقم [٥٥٣].

(٢) «المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير» للمباركفوري ص [١٠٢] ط. دار السلام.

ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم أولئك الذين ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١][(١)].

عن هشام بن يحيى الغساني عن أبيه قال: جاء سائل إلى ابن عمر فقال لابنه: أعطه دينارًا فلما انصرف قال له ابنه: تقبل الله منك يا أبتاه فقال: لو علمت أن الله يقبل مني سجدة واحدة وصدقة درهم لم يكن غائب أحب إليَّ من الموت أتدري ممن يتقبل؟ إنما يتقبل الله من المتقين[(٢)].

سادسًا- الخوف من مكر الله:

قال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩]. هذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ وتدل على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمنًا على ما معه من الإيمان، بل لا يزال خائفًا وجلًا أن يبتلى ببلية تسلب إيمانه، وأن لا يزال داعيًا بقوله: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، وأن يعمل ويسعى في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن، فإن العبد ولو بلغت به الحال ما بلغت فليس على يقين من السلامة.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأيت الله يعطي العبد ما يحب وهو مقيم على معصيته فإنما ذلك منه استدراج**» ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤][(٣)]، قال الإمام الطحاوي في عقيدته: والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة، وفي

---

(١) رواه الترمذي برقم [٣١٧٥]، وأحمد (٦/ ١٥٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» ص [١٦٢].

(٢) «صفة الصفوة» (١/ ٢٣٤) ط. دار المنار.

(٣) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي ص [٣٢٦] ط. دار ابن الجوزي.

شرح ذلك قال الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله: والأمن من مكر الله كفر، واليأس من روح الله كفر أيضًا كما قال: «ينقلان عن ملة الإسلام» لأن الله وصف الكافرين والخاسرين الذين استحقوا العقوبة منه والعذاب بأنهم يأمنون من مكر الله وييأسون من روح الله، وأما أهل السنة والجماعة فهم لا يأمنون بل يخافون ذنوبهم ويخافون عقوبة الله عَزَّوَجَلَّ[١]، ويقول الفوزان حفظه الله: ثم إن الخوف لا يكون معه قنوط، فإن كان معه قنوط من رحمة الله صار كفرًا قال تعالى: ﴿لَا يَايْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]. قال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]. وكذلك الرجاء لا يكون رجاء مع الأمن من مكر وعدم الخوف وهذا مذهب المرجئة وهو مذهب ضال، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]. فالرجاء فقط كفر، والخوف دون الرجاء كفر ولذلك قال المصنف ينقلان عن ملة الإسلام لذا يقول بعض السلف: يجب على العبد أن يكون بين الخوف والرجاء، يعني يسوي بينهما كجناحي الطائر وجناحا الطائر معتدلان لو اختل واحد منهما سقط[٢].

سابعًا- الخوف من النفاق وآثار الذنوب:

المؤمن الحق يظل طول حياته خائفًا ولا يحصل في قلبه الأمان حتى يبشر بقول ملائكة الرحمن: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]. ولذلك يخاف المؤمن على نفسه النفاق، يخاف أن تكون فيه خصلة من النفاق وهو لا يشعر ولقد تقدم ما قاله ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل[٣].

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٥٤) وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم [٤١٤].

(٢) «جامع شروح العقيدة الطحاوية» ص [٧٨٠-٧٨١]، ط. دار ابن الجوزي بالقاهرة.

(٣) سبق تخريجه وهو عند البخاري معلقًا بصيغة الجزم.

قال الحسن البصري: ما خافه إلا مؤمن وما أمنه إلا منافق.

وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة: أنشدك الله هل سماني لك رسول الله؟ يعني في المنافقين فيقول: لا ولا أزكى بعدك أحدًا، فسمعت شيخنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول ليس مراده أني لا أبرئ غيرك من النفاق بل المراد لا أفتح على نفسي هذا الباب[1]، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن، ومن تأمل أحوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير -بل التفريط- والأمن[2].

وكذلك يخاف المؤمن ذنوبه كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مَرَّ على أنفه فقال به هكذا[3]، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: فمما ينبغي أن يعلم أن الذنوب والمعاصي تضر، ولا شك أن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟!

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟!

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه؟! وحل عليه غضب الرب تعالى فأهواه ومقته أكبر المقت فأرداه، فصار قوادًا لكل فاسق ومجرم؟!

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال؟! وما الذي سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل

---

(١) «الداء والدواء» لابن قيم الجوزية ص [٦٢-٦٣]، ط. ابن رجب.

(٢) المصدر السابق ص [٥٩].

(٣) رواه البخاري برقم [٦٣٠٨].

خاوية، ودمرت ما مرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟!

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم؟! وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها فأهلكهم جميعًا، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم ولإخوانهم أمثالها، وما هي من الظالمين ببعيد؟

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارًا تلظى؟

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم فالأجساد للغرق والأرواح للحرق؟

وما الذي خسف بقارون وداره وماله؟ وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمَّرها تدميرًا؟ وما الذي أهلك قوم صاحب ياسين بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم[1].

والجواب الذي لا محيد عنه إنها المعصية، فيا من امتلأت حياته بالكدر، يا من أثقلته المعاصي وسيطرت عليه الشهوات تخلص اليوم من رق المعصية وانهض من ورطة الذنوب، أنقذ نفسك من الهلاك غدًا، أفق من غفلتك قبل أن تفاجأ بالموت فتلقى الله فتندم في وقت لا ينفع فيه ندم.

---

(١) «الداء والدواء» ص [٦٤-٦٥].

الأسباب الجالبة للخوف

الخوف شأنه شأن سائر العبادات القلبية يزيد بزيادة الإيمان وينقص بنقصه، ومن الأسباب التي تستجلب الخوف وتحققه في القلب وتزيده فيه ما يلي:

أولًا - اجتناب كل سبب يضعفه أو يمنعه:

لابد من تطهير القلب ابتداء من موانع الخوف والمشغبات التي تشغل القلب وتلهيه وتصمه وتعميه، ومن هذه الأمور أصدقاء السوء فالصاحب ساحب وقد قال ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]. فكم من إنسان ضل وزل عن طريق الهدى، وسلك طريق الغواية بسبب أصدقاء السوء، كم من إنسان أعرض عن المساجد وهجر القرآن ودروس العلم بسبب أصحاب السوء واستبدل بمجالسة ملائكة الله وتنزل رحمات الله مصاحبة التافهين من أصحاب السوء الذين يستجلبون له اتباع الشياطين وتنزل اللعنات عياذًا بالله، ومن هذه الأسباب التعرض للفتن، ومن استشرف لفتنة أهلكته، والفتن خطافة كثيرة شديدة لا سيما في هذا العصر الذي صارت تموج فيه موجًا، وتتلون فيه ألوانًا، وكم من هالك هلك حينما عرضت له فتنة لم يكن عنده من رصيد الإيمان والخوف من الله ما يدفعها، ألا فليعلم أن أسلم طريقة للنجاة من الفتن البعد عنها كما سيأتي بيانه في الثبات إن شاء الله، ومن هذه الأسباب ارتكاب المعاصي واقتراف الذنوب والغرق في الشهوات والغفلة المستحكمة، واتباع الأهواء، والتكاسل عن الطاعات كل ذلك وغيره مكدرات تضعف الإيمان في القلب فلابد من تخليص القلب منها أولًا بتوبة نصوح صادقة حتى تتمكن معاني الإيمان بعد ذلك من القلب.

ثانيًا- الدعاء والتضرع:

معاني الإيمان هي أسمى وأعلى ما يؤتاه المرء في هذه الدنيا، وهي أعظم النعم التي يرزق بها الإنسان في هذه الحياة ومن أهم الأسباب الجالبة لها الدعاء والإلحاح على الله عَزَّوَجَلَّ في حصولها وتحقيقها وربنا عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غَافِر: ٦٠]. وكان من دعاء رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك**»(١)، وكان من دعائه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذلك: «**اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة**»(٢)، فألح على ربك في الدعاء أن يملأ قلبك بخشيته.

ثالثًا- التأمل في خطر الذنوب وآثارها:

مما يفزع القلب أن ينظر المرء في ذنوبه ومعاصيه وأن يعلم أن ذنبًا واحدًا كفيلًا بإهلاكه وعذابه، وكل ما اقترفته يداك قد سجل عليك وحفظ وكتب قال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [قٓ: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزُّخْرُف: ٨٠]، وتأمل قول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكَهْف: ٤٩].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لعن إبليس وأهبط من منزل العز بترك سجدة واحدة أمر بها، وأخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها، وحجب القاتل عنها بعد أن رآها عيانًا بملء كف من دم، وأمر بقتل الزاني أشنع القتلات بإيلاج قدر الأنملة فيما لا يحل له، وأمر بإيساع الظهر سياطًا بكلمة قذف أو بقطرة من سُكْر، وأبان عضوًا من أعضائك بثلاثة دراهم، فلا تأمنه أن يحبسك في النار بمعصية واحدة من معاصيه قال تعالى: ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ [الشَّمْس: ١٥].

---

(١) رواه الترمذي برقم [٣٥٠٢]، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم [١٢٦٨].

(٢) رواه النسائي [١٣٠٦]، وأحمد [١٧٨٦١]، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» ص [١٣٠١].

دخلت امرأة النار في هرة، وإن الرجل ليتكلم الكلمة لا يلقي لها بالًا يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب، وإن الرجل ليعمل بطاعة الله ستين سنة فإذا كان عند الموت جار في الوصية فيختم له بسوء عمله فيدخل النار[١]، ويقول أبو الفرج ابن الجوزي عليه رحمة الله: ينبغي للعاقل أن يكون على خوف من ذنوبه وإن تاب منها وبكى عليها، وإني رأيت أكثر الناس قد سكنوا إلى قبول التوبة وكأنهم قد قطعوا على ذلك وهذا أمرٌ غائب، ثم لو غفرت بقي الخجل من فعلها ويؤيد الخوف بعد التوبة أنه في الصحاح أن الناس يأتون إلى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقولون: اشفع لنا فيقول: ذنبي، وإلى نوح فيقول: ذنبي وإلى إبراهيم وإلى موسى، وإلى عيسى صلوات الله وسلامه عليهم[٢]، فهؤلاء إذا اعتبرت ذنوبهم لم يكن أكثرها ذنوبًا حقيقة، ثم إن كانت فقد تابوا منها واعتذروا، وهم بعد على خوف منها، ثم إن الخجل بعد قبول التوبة لا يترفع، وما أحسن ما قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: واسوأتاه منك وإن عفوت، فأُفٍّ والله لمختار الذنوب ومؤثر لذة لحظة تبقى حسرة لا تزول عن قلب المؤمن وإن غفرت له، فالحذر الحذر من كل ما يوجب خجلا[٣].

إن لكل ذنب عقوبة عاجلة أو آجلة يعاقب بها الإنسان إن لم يسارع بالتوبة إلى ربه جَلَّ جَلَالُهُ قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١].

رابعًا- النظر في إهلاك الله للظالمين والعصاة:

إن أخذ ربنا أليم شديد، وإذا غضب الرب جَلَّ جَلَالُهُ لم يقم لغضبه شيء قط وفي قصص الأمم السابقة وبيان عاقبة أمرها عظة وعبرة، قال الله تعالى عن فرعون حينما تجبر

---

(١) «الفوائد» ص [٨١]، ط. دار إحياء الكتب العربية.

(٢) كما في حديث الشفاعة المشهور ولكن فيه: «ولم يذكر عيسى شيئًا».

(٣) «صيد الخاطر» ص [٤٠٠-٤٠١]، ط. دار الحديث بالقاهرة.

وتكبر وعتا وطغا وقصمه الله وأغرقه وجعله عبرة للمعتبرين، قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢٥-٢٦]. وقال تعالى عن الأمم المتجبرة التي عتت عن أمر ربها ورسله، وعميت عن الحق والهدى، وآثرت اتباع الهوى، والحياة الدنيا على الآخرة التي هي خير وأبقى قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]. وتفصيل ذلك في آيات أخر يسهل الرجوع إليها فتأمل فيها يمتلئ قلبك انكسارًا وخوفًا من الله جَلَّجَلَالُهُ.

وهذا أحمد بن أبي دؤاد القاضي المعتزلي الذي أحدث فتنة في الأمة وبسببه قُتل من أهل العلم من قتل، وسجن من سجن، وممن قتل أحمد بن نصر الخزاعي، وممن سجن الإمام أحمد الذي حبس وعذب عذابًا شديدًا بالسياط ودعا عليه الإمام أحمد فحبسه الله في جلده ودخل عليه عبد العزيز الكناني يعوده فقال: لم آتك عائدًا، بل لأحمد الله أن سجنك في جلدك[1]، وهذا محمد بن عبد الملك الزيات الذي كان يتفنن في تعذيب علماء أهل السنة في أيام المحنة يقول عنه الذهبي في السير: وكان يقول بخلق القرآن، ويقول: ما رحمت أحدًا قط، الرحمة خور في الطبع فسجن في قفص حرج جهاته مسامير كالمسال فكان يصيح: ارحموني، فيقولون: الرحمة خور في الطبيعة[2]، ألا فليحذر الذين يخالفون عن أمر ربهم أن يصيبهم الله بعذاب أليم، وأن يجعلهم أحاديث تروى، وعظات تحكى فكم من عاصٍ فضح وهتك ستره، وكم غارق في الذنوب نزلت به قوارع العقاب وذاق الذل والفقر والحسرات، وندم في وقت لا ينفع فيه ندم، فطوبى لمن اتعظ بغيره ولم يكن هو موعظة للناس من بعده؛ إن ربنا بالمرصاد لكل عاصٍ وظالم يحصى عليه عمله،

(١) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ١٧٠).

(٢) المصدر السابق (١١/ ١٧٣).

ويراقب حاله وزَلَلَهُ، فإن لم يرتدع وينزجر، واستمر في عماه وضلاله، وظلمه وعصيانه نزلت به العقوبات المؤلمة في الدنيا قبل الآخرة ثم من بعد ذلك العذاب الأليم إن لم يتجاوز عنه رب العالمين فاحذر يا عبد الله أن تفضح بين الناس بمعاصيك، احذر أن يتبدل اسمك عند الله من مؤمن إلى فاسق فاجر، واحترس من الذنوب قدر استطاعتك ولا تكن جريئًا على معصية الله فتسقط من عينه، وتستحق غضبه وانتقامه وهو الحليم، وتستأهل عذابه وعقابه وهو الرحيم أنت أضعف من أن تتحمل عذاب الدنيا؛ فكيف بعذاب الآخرة؟!

قال الله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ [الطلاق: ٨-١٠].

خامسًا- مجالسة الصالحين ومطالعة سير السلف:

مجالسة الصالحين من سبل زيادة الإيمان لاسيما إذا كانت مجالسهم عامرة بالتذكير بالله، والمواعظ المؤثرة والإنسان ابن بيئته، أسير لما يسمع، متأثر بطبيعته بمن يخالطهم فإذا خالط أهل التقوى استفاد من هديهم وسمتهم وإذا جالس العلماء العاملين وسمع منهم أثر ذلك في قلبه وازداد إجلاله وتعظيمه لربه، والعلماء العاملون هم الذين جعلوا كل قضيتهم نجاة النفوس وإصلاحها والمسارعة إلى جنات الله ورضوانه، وتلك هي المصابيح المزهرة والأنوار المتلألئة في دياجير الدنيا وظلمة الشهوات والشبهات، ففي دروس العلم يرق قلبك، وتدمع عينك، ويزداد إيمانك ويتجدد، وتخشع لربك وتنيب إليه وتنتفع بما تسمع وترى من أهل الخشية والتقوى، ومن أهم ما في ذلك المطالعة لسير السلف ودوام النظر فيها؛ فإن في ذلك دعوة قوية للاقتداء بهم والسير على منهاجهم فإن النفوس طبعت على التأسي وجبلت على المحاكاة، لاسيما إذا كان ما تحاكيه مثالًا صادقًا، وقدوة حقيقية جذابة وسيرة السلف جديرة بذلك كل جدارة. ولك أن ترجع فتنظر إلى

هذا القبس الذي أسلفناه عنهم، وتأمل في هذا الباب باب الخوف قول الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين يمسك لسانه: هذا الذي أوردني المهالك[١]، سبحان الله! الصديق يقول هذا عن لسانه الذاكر الشاكر الذي سبق كل الناس في تصديق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصره؟!

وهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: لو مات جمل ضياعًا على جانب الفرات لخشيت أن يسألني الله عنه يوم القيامة[٢].

وهذه أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يقول ابن أبي مليكة: استأذن ابن عباس على عائشة قبيل موتها وهي مغلوبة قالت: أخشى أن يثني عليَّ فقيل: ابن عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وجوه المسلمين قال: ائذنوا له فقال: كيف تجدينك؟ قالت: بخير إن اتقيت قال: فأنت بخير إن شاء الله، زوجة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم ينكح بكرًا غيرك، ونزل عذرك من السماء، ودخلت ابن الزبير خلافه فقالت: دخل ابن عباس فأثنى عليَّ وددت أني كنت نسيًا منسيًا[٣]، يالله!! كل هذه المناقب والفضائل التي آتاها الله إياها ومع ذلك تقول وددت أني كنت نسيًا منسيًا! ويقول ابن أخيها القاسم بن محمد: كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فأسلم عليها، فغدوت عليها يومًا فإذا هي قائمة تسبح (تصلي الضحى) وتقرأ: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]. وتدعو وتبكي وترددها فقمت حتى مللتُ القيام فذهبت إلى السوق لحاجتي ثم رجعت فإذا هي قائمة تصلي وتبكي[٤]، وسيرة الأكابر والأفاضل من السلف في ذلك كثيرة قدمت شيئًا منها قريبًا، وبعد أن نشاهد تلك المشاهد منهم ينبغي أن نقف ونتساءل: إذا كان هذا هو خوفهم مع فضلهم العظيم؛ فكيف ينبغي أن يكون خوف المفلسين من أمثالنا؟ كيف

---

(١) «صفة الصفوة» (١/ ٢٥٣).

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ٣٠٥)، ط. دار صادر.

(٣) رواه البخاري برقم [٤٧٥٣].

(٤) سبق تخريجه.

ينبغي أن يكون خوفنا مع غفلتنا وتقصيرنا ومعاصينا؟! إن عند هؤلاء السلف من رصيد الإيمان وأسباب النجاة ما ليس عندنا فما الذي يؤمننا وقد خافوا هذا الخوف العظيم؟! اللهم أيقظنا من غفلتنا، ونبهنا من رقدتنا وقنا شر نفوسنا.

سادسًا- تذكر عظمة الله وجلاله:

من تفكر في عظمة ربه وكبريائه وعزته وجبروته خشعت نفسه، وذل قلبه، ووجل فؤاده، وانكسر كل الانكسار للعلي الغفار جَلَّجَلَالُهُ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. أخرج الترمذي عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال حماد: هكذا وأمسك سليمان بطرف إبهامه على أنمله: أصبعه اليمنى قال: فساخ الجبل ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[(١)]، فساخ الجبل أي: غاص في الأرض وغاب فيها ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أي: مغشيًا عليه لهول ما رأى[(٢)].

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

يقول الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ يقول تعالى ذكره: فلما اطلع الرب للجبل جعل الله الجبل دكًا أي: مستويًا بالأرض، وخر موسى صعقًا أي مغشيًا عليه.

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ قال: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر، ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال: ترابًا ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ قال: مغشيًا عليه[(٣)]، وقال

(١) رواه الترمذي برقم [٣٠٧٤]، وأحمد (٣/ ١٢٥)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» [٤٨٠].
(٢) تحفة الأحوذي (٨/ ١٦) ط. التوفيقية
(٣) «تفسير الطبري» (١٣/ ٩٧) ط. الرسالة.

الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧]. وفي صحيح مسلم عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ هذه الآية ذات مرة على المنبر: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائل بيده يحركها يقبل بها ويدبر يمجد الرب تعالى نفسه: «أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم»، فرجف المنبر برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى قلنا: ليخرنَّ به، وفي رواية أخرى عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول: أساقط هو برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1]؟

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[2]، إذا علم العبد عظمة ربه وكمال غناه عنه، وأن الله لا يخفى عليه شيء ولا يغيب عن سمعه صوت، وأنه لو شاء لأهلك كل الخلق في طرفة عين أو أقل من ذلك وأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وأنه سبحانه شديد العقاب، سريع الحساب، إذا تفكر العبد في كل ذلك وغيره من صفات ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ انصدع قلبه وخشع، وذلت نفسه كل الذل لمن بيده ملكوت كل شيءٍ، وامتلأ فؤاده بالخشية والخوف من رب العالمين.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، اللهم اجعلنا من عبادك المتقين.

---

(١) رواه مسلم برقم [٢١٤٩]، وأحمد (٢/ ٧٢).

(٢) رواه مسلم برقم [١٧٩]، وابن ماجه برقم [١٩٥].